مظاهرُ العقلِ المسلم في الدَّرسِ النَّحويِّ
دراسةٌ في الأَثرِ والتأثيرِ

أ.م.د. أحمد عبد الكاظم علي الجبوريّ أ. كاظم داخل جُبير الجبوريّ
كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة المثنى

The manifestations of the Muslim mind in the grammar lesson
Study on impact and impact

Ass. Prof. Dr. Ahmed Abdul Kadhim Al-Jubouri
Prof. Kazem Dakhil Jubair Al-Jubouri
College of Education for Human Sciences\ University of Muthanna
com.ahh99979@gmail

Abstract

The research aims to prove that the grammar lesson exceeds the limits of the structure of the Arab mind in the establishment and in the knowledge system. It is based on a broader horizon, namely, the Muslim mind. The latter is not limited by a particular land or nationality. It is embodied in the framework of religion and is connected to the one Lord, The principles of Islam are supreme, and its goal is to preserve the Book of God from this religion. There is no doubt that this religion is a special concept, and has manifestations became clear in the course of this lesson sought by the researcher in this research.

Keywords: grammar, approach, treat, heritage.

الخلاصة:

يرمي البحث إلى إثبات تخطي الدرس النحوي حدود بنية العقل العربي في التأسيس، وفي الجهاز المعرفي، وأنه ينطلق في ذلك من أفق أرحب وهو (العقل المسلم)، وهذا الأخير لا تحده أرض أو قومية معينة، وهو يتجسد في إطار الدين، ويرتبط بالرَّب الواحد، منهله مبادئ الإسلام السامية، وهدفه حفظ كتاب الله عنون هذا الدين. ولا شك أنَّ لهذا الدين مفهوم خاص، وله مظاهر اتضحت في غضون هذا الدرس سعى الباحث إلى إجمالها في هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: النحو، منهج، تعامل، التراث.

المقدّمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين وبعد، فالدرس النحوي رائعة من روائع الفكر الإسلامي تتخطى حدوده بنية العقل العربي، فهو بناء ذو طابع ثقافي وعلمي في آن واحد لا تخفى اللقاحات العلمية العالمية فيه، وهو كالشجرة التي غُرست في أرض عربية وسقيت ولُقحت من مشارب شتى وهذا المنبت وهذه المشارب يجمعها عنوان واحد هو (العقل المسلم)، وهذا الأخير لا تحده أرض أو قومية معينة بل هو يتجسد في اطار الدين ويرتبط بالرب الواحد منهله مادة الاسلام أعني المبادئ السامية وهدفه حفظ كتاب الله عنوان هذا الدين ولا جرم أن هذا العقل له مفهوم خاص به، وله مظاهر اتضحت في غضون هذا الدرس المبارك سعى الباحث الى اجمالها في هذا البحث المختصر فأوردها في ثلاثة مطالب:

1- مفهوم العقل المسلم.
2- مظاهر العقل المسلم في تأسيس النحو.
3- مظاهر العقل في ضوء عناصر الجهاز المعرفي.

سبقتها مقدمة وختمت بنتائج.

أولاً:

- **في مفهوم العقل المسلم:**

العقل لغة: تُجمع المعاجم العربية على أن المعنى الابتدائي لكلمة (عقل) هو (الربط)، اذ يقول ابن منظور(711هـ): ((عقل البعير يعقله عقلاً، وعقّلهُ والجمع عُقُلٌ، والعقالُ: الرباط الذي يُعقل به))[1]، فهذا مُشخّص محسوس للعقل أي مادِّي، وترتقي بنا ذات المعجمات إلى درجة أعلى على نفس السلَّم فنقرأ ((والمعقولُ ما تعقلُهُ بقلبك، والعاقلُ من حبس نفسهُ عن هواها، والعرب إنما سُمّت الفهم عقلاً؛ لأن ما فهمتهُ فقد قيدتهُ، وضبطته بعقلك كما البعير قد عُقِل أي أنك قيَّدت ساقهُ إلى فخذه))[2].

من تتبع السياقات اللغوية لكلمة (عقل) في انتظامها على سلّم الانتقال من المحسوس المادِّي إلى المعقول المجرّد ننتهي إلى نتيجتين[3]:

إحداهما: أن العقل هو بمثابة قيد للمعاني فقد يقيِّدها ويحفظها ويربطها، وقد وردت آيات كثيرة في هذا المعنى منها قوله تعالى: ((يسمعون كلام الله ثمَّ يُحرِّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون))[4] أي من بعد ما فهموه وقيدوه ووعوه. فالعقل في المجال التداولي البياني الأصل فيه عملية تقييد وحفظ المعاني، والمعارف التي تُتلقى، فهو فعل أو نشاط وليس ذاتاً وبعبارة المتكلمين هو عرض وليس جوهراً.

الأخرى: إن هذا الفعل الذي يقوم به العقل فعل الربط، والضبط، والحفظ يتم بالقلب، فالقلب أداةٌ والعقلُ وظيفتها. وقد ورد في قوله تعالى: ((أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها))[5]. وهذا يُفهم أنه كما أن الآذان أداة للسمع، والأعين أداة للإبصار فالقلب أداة للعقل.

وثمة أمر وارد في القرآن مفاده: أن ما يخص الفعل ورد بصيغة فعلية (تعقلون أو يعقلون) ولم يرد بصيغة الاسم والنكتة هنا التركيز على حدث التعقّل والتغيَّر في آفاق الفكر بخلاف لو كان اسماً فلا يدل على ذلك إذ سيدل على الثبوت والكمون.

العقل اصطلاحاً: بفتح العين وسكون القاف يُطلق على معانٍ[6]:

يقول الكفوي: ((العاقلُ هو المُدرك، والمعقول هو المُدرَك بالفتح، وما يُعقل في الدرجةِ الأولى سواء أكان موجوداً أم معدوماً، أم بسيطاً، أم مركباً وكذا مالا يعقل إلا عارضاً لغيره إذا كان في الخارج ما يُطابقُهُ كالإضافات إذا قيل بتحققها يُسمّى معقولاً أو لا. وما لا يُسمّى معقولاً في الدرجة الأولى، بل بحيث إن يعقل عارضا لمعقولٍ آخر، ولا يكون من الخارج ما يُطابقهُ يُسمّى معقولاً ثانياً. والعقليُّ: يطلق على مالا يدرك هو ولا مادته بتمامها بإحدى الحواس الظاهرة سواء أدرك بعض مادتهِ، أو لا. والتعقُّل: قسم من الإدراك وهو إدراك الشيء مجرداً من اللواحق المادية، ويسمّى بالعقل أيضاً، وقد يُسمى بالعلمِ أيضاً عند البعض، وقد يُطلق على الإدراك مطلقاً سواء أكان المُدرك مُجرّدا، أم مادياً كما وقع في العلمي، في تعريف الحكمة النظرية)).

ويمكن لحاظ التساوق بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي فهو الربط والتقييد والضبط.

وثمة معنى طريف يمكن تلمسه في السياق اللغوي الأول (العقل والناقة) مفاده: أصل العقل للناقة راحلة الأعرابي في الصحراء، فلها عقل يقيدها ولراكبها عقل يقيده عن الخطأ وإن اختلفا في الماهية والعرض.

ولسائل يسأل: هل العقل هو علوم مخصوصة؟ فما هي إذن هذه العلوم؟ وهل هي علوم محصورة بعدد أو تحصر بالصفة لا بالعدد؟ يجيب على هذه التساؤلات القاضي عبد الجبار بقوله: ((وهي محصورة بالصفة لا معتبر فيها بعدد والأصل في ذلك أن الغرض بالعقل ليس نفسه، وإنما يُراد أن يُتوصل به إلى اكتساب العلوم والقيام بما كلِّف من الأفعال فلابدّ أن يحصل للعاقل من العلوم ما يصح معها أن يكتب ما يلزمه من المعارف ويؤدي ما وجب عليه من الأفعال وما تسلم معه هذه العلوم وما يكون أصلا لهذه العلوم ويجري مجراه في الجلاء))[7].

ويضيف قائلاً: ((أما العقل فإنما يوصف بذلك لوجهين: أحدهما: أنه يمنع من الاقدام عمّا تنزع اليه النفس من الأمور المشتهاة المقبّحة في عقلهِ، فشبّه هذا العلم بعقل الناقة المانع لها عما تشتهيهِ من التصرُّف، والثاني: إنَّ معهُ تثبت سائر العلوم المتعلقة بالفهم والاستدلال، فمن حيث اقتضى ثبات سائر العلوم المتعلقة بالفهم والاستدلال شبه بعقل الناقة المقتضي لثباتها))[8].

ويتفق الأشاعرة والمعتزلة في هذا الموضوع سوى أن بعضهم يستعمل (العلوم الضرورية) بدل (العلوم المخصوصة) التي استعملها القاضي عبد الجبار. إذ يقول أبو يعلى الحنبلي: ((والعقل ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض واحد، بل هو بعض العلوم الضرورية خلافا للفلاسفة في قولهم أنه جوهر بسيط خلافا لبعضهم في قولهم إنه مادة وطبيعة، وخلافاً لقوم آخرين في قولهم أنه قوة يفصل بها بين حقائق المعلومات، وخلافاً لبعض الأشعرية في قولهم: إنه عرض واحد مخالف لسائر الأعراض والعلوم. ثم يستدل على صحة تعريفه... ولا يجوز أن يقال: ان العقل هو جميع العلوم الضرورية، والكسبية ؛لأن العقل يصح مع عدم جميع العلوم النظرية ولا يجوز أن يكون هو جميع العلوم الضرورية...))[9].

وينظر ابن العربي إلى العقل من زاوية أخرى في سياق رده على القائلين بأنّ العقل قادر على التوصل إلى معرفة الله بنفسه وأنه لا حاجة في ذلك إلى شرع يقول: ((هذه طائفة لم تعلم العقل ولا عقلته وأفرادها مختلفون فيما بينهم حول معناه وهم يقولون أنه مشترك، من معانيه صحة النظر، ومنها التجربة، ومنها الوقار والسكينة، وزادوا على إخوانهم الفلاسفة أنه علوم ضرورية وعلوم نظرية وعملي وهيولاني وملكي، ثم يضيف متسائلاً: فما ظنك بمعلوم بيِّن يدخل في الإشكال في هذه السوق الكاسدة ويباع البيوعات الفاسدة؟ العقل...في لسان العرب: العلم لا فرق عندهم بين عقلت، وعرفت، وعلمت...ظنوا أنه كل العقل...))[10].

ويرد الجابري على ابن العربي بقوله: لا معنى لتشدد ابن العربي وانغلاقه وعدم تفتحه، بل كان هناك قبله من هم أكثر تشدداً كالحنابلة وغيرهم، ويصرح قائلاً: العقل هو العلم ولا شيء غير ذلك[11].

ولست بصدد الترجيح بين الآراء بل عرضها والوقوف على الدقيق منها، فإذا مضينا في سبيل ذلك يطالعنا رأي دقيق للراغب الإصفهاني يفرق فيه بين العقل والعلم إذ يقول: ((العقل يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الانسان بتلك القوة عقل...))[12]. بينما يعرف العلم أنه: ((إدراك للشيء بحقيقته وذلك ضربان: أحدهما: إدراك ذات الشيء، والثاني: الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له، أو نفي شيء هو منفي عنه))[13].

وجاء في دائرة معارف القرن العشرين: ((العقل: هو القوة المدركة في الانسان وهو مظهر من مظاهر الروح محله المخ...))[14].

ونقل عن الماوردي قوله: ((وقال آخرون – وهو القول الصحيح – أن العقل هو العلم بالمدركات الضرورية، وذلك نوعان: أحدهما ما وقع عن درك الحواس، والثاني ما كان مبتدئاً في النوع))[15].

ونقل عنه أيضاً: ((وقال آخرون: العقل هو المدرك للأشياء على ما هي عليه من حقائق المعنى))[16].

وهكذا يتضح لنا أن كلمة العقل من الكلمات المشكلة عند علماء الإسلام وهي تطلق على معنيين هما:

1- القوة المدركة المتهيئة لقبول العلم، وهي القوة المميزة للنوع الإنساني عن سائر الحيوانات، واعتبره علماء الإسلام بمثابة الفصل في تعريف الإنسان. يوحي بتقبل التعريف المنطقي للانسان بأنه حيوان ناطق، ذلك أن الناطقية ترتبط بالقدرة على التفكير وتلقي المعرفة.
2- يطلق علماء الإسلام مصطلح العقل على مجموع المعارف التي يستفيدها الانسان عن طريق الادراك العقلي، منطلقين من اطلاق اسم السبب على المسبب، ذلك أن العقل هو علة تحصيل العلم وبذا ساووا بين مصطلح العقل والعلم في هذا المجال كما في تعريف الراغب الأصفهاني، وكما في تعريف الماوردي.

ويتضح لنا مصطلح العقل المستعمل بمعنى العلم المستفاد من قبولهم تقسيم العقل إلى:

1- العقل النظري (العلوم النظرية).

2- العقل العملي (العلوم العملية).

وكذلك تقسيمهم العقل إلى:

1- العقل المطبوع.

2- العقل المكتسب.

وهذا التقسيم الأخير يختاره الماوردي في تعريفه سابق الذكر بأن العقل نوعان:

1- العلم المستفاد من الحواس ضرورة.

2- العلم الغريزي المركوز في أعماق الإنسان بشكل فطري كمعرفة الانسان للضحك، والرضاع، والبكاء.

وهكذا يتضح أن مصطلح (العقل المسلم) في أحد معنييه يعني العلوم والمعارف التي أنتجها العقل بمنهج تفكير إسلامي ووفق مسلمات إسلامية.

وهذا التعريف يفصل بين العقل كقوة مدركة وبين العقل بالمعنى الآخر، فالعقل بالمعنى الأول هو عام مشترك بين أبناء النوع البشري جميعاً فليس هناك عقل عربي أو عقل إسلامي، أو عقل يوناني، أو عقل أوربي بل هو عقل واحد هو (العقل الطبيعي)، وتتضح قوانينه في علم المنطق، علم القوانين العامة للتفكير.

وأن التمييز بين العقول الذي يلزمنا بتسمية العقل بانه (عقل مسلم)، أو (عقل أوربي) أو (عقل يوناني) هو إطلاق العقل بمعنى العلم المستفاد وفق منهج تفكير، ومسلّمات مختصة بعقل دون آخر فتمنحه الوصف والتسمية المميزة، وبذا يتضح أن العقل المسلم بهذا المعنى يساوق مصطلح الفكر الاسلامي، والتدقيق العلمي ودواعي التمييز بين الأشياء.

إذن فالأفضل إطلاق مصطلح (العقل المسلم)على العقل الطبيعي (القوة المدركة) الذي يمارس نشاطه العلمي وفق الأس والمسلمات الاسلامية، أي تلك الآلة المدركة التي تنظم حركتها وآلية عملها وفق خريطة وتعليمات اسلامية وهنا يكون (العقل المسلم) أكثر دقة ووضوحاً.

فعندما نستعمل مصطلح (العقل المسلم) نقصد به: العقل البشري الذي يمارس عملية التفكير والتعامل مع المدركات بطريقة إسلامية ليعطي نتائج إسلامية، ومجال ذلك هو العلوم والمعارف ذات الطبيعة المذهبية. ولنطلق على ما ينتجه هذا العقل من علوم ومعارف اسم الفكر الإسلامي أو العلوم والمعارف الاسلامية، بل نستطيع أن نطلق على جزء كبير من تلك المكتشفات اسم الثقافة الاسلامية.

ولعل إطلاق اسم (العقل العربي) على العقل الاسلامي متأت من نشوء هذا العقل في البيئة الناطقة بالعربية، ولأن تلك العلوم دوِّنت بلغة العرب واستوحت مادتها من الكتاب والسنة بشكل أساسي وهما نصان عربيان مبينان ولأن الدولة التي تدير الحياة السياسية كانت دولة عربية بلغتها ونسب حكامها وقادتها الأساسيين[17].

- عناصر تشكيل العقل المسلم[18]:

أولاً –العقلانية: ومفادها أن العقل هو المبدأ الأساسي في إيجاد وتقويم الفكر الإسلامي والآيات كثيرة في هذا الأمر.

وفي ضمن هذا العنصر برزت ثلاثة اتجاهات يمكن عدّها مواقف من العقلانية:

أ- إلغاء وتعطيل دور العقل في فهم الشرع وإثبات العقيدة وإلى ذلك ذهب الفهم الظاهري والحشوي ودعا إلى التوقف عند ظاهر النص وهذا الاتجاه السلفي أدى إلى تجميد حركة العقل وإيقاف دوره في الفهم والاستنباط وتمثل هذا الاتجاه: الظاهرية، والحشوية، والسلفية، والاشاعرة، وبعض توجهات الإخبارية الشيعية. ويشارك في هذه الاتجاهات الاتجاه الصوفي والعرفاني الذي قال بنظرية الكشف التي مفادها أن العقل بمنهجه البرهاني والاستدلالي لا يوصل إلى المعرفة الحقة.

ب- المغالات في دور العقل: ومفاده الخروج من العقلية العلمية إلى الشكلية السوفسطائية والتحكم بالشرع وفق تلك الشكلية غير المنطقية.

ت- التوظيف العلمي للعقل: وهذا الاتجاه المعبر عن التقويم القرآني للعقل وهذ الاتجاه حدّد العقل تحديدا طبيعياً. وقد آمنت هذه المدرسة بأن قيمة العقل تقيّم على الأس الآتية:

1- قدرته على اكتشاف العالم الخارجي المتطابق مع الواقع.

2- قدرته على الربط والتحليل والاستنتاج.

3- إن له حدودا ليس بوسعه أن يتجاوزها.

ثانياً: مبدأ العلية والسببية فالعقل المسلم يؤمن بمبدأ العلية والسببية في عوالم الطبيعة والفكر والمجتمع.

ويعد العقل المصدر الأساسي في إثبات العقيدة والمعارف وفهم النص والاستنباط، وتحدث الشريف المرتضى عن أثر العقل في العلوم ولاسيما الإلهية فقال: ((ان الطريق إلى معرفة الله هو العقل))[19].

ومن ثم ((فكل قضية عقلية يتوصل بها إلى العلم الفعلي...))[20].

يتضح مما تقدم أن هناك منهجا علميا في التفكير الإسلامي، وأن العقل الإسلامي في منهجه قد ارتقى إلى العقل النظري[21]. فظهر في القرون الأربعة عدد كبير من الأئمة والعلماء والفلاسفة والمؤرخين ممن يعتز بهم كل مجتمع يكونون فيه في كل زمان ومكان منهم على سبيل المثال: الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) وتلاميذه، ومن الفلاسفة: الكندي والفارابي، وإخوان الصفا، وابن سينا، وابن حزم، والغزالي، ومن العلماء: جابر بن حيان، والخوارزمي وغيرهم.

ثانياً:

مظاهر العقل المسلم في تأسيس علم النحو.

أولاً: الإمامة والوزارة والتوكيل.

على الرغم مما أثير من جدل في مسألة وضع النحو وأول من وضعه وهل هو من نتاج الأمة الإسلامية أم هو أثر من آثار الفلسفة الإغريقية انتهت أغلب الآراء إلى أن وضع علم النحو وتأسيسه يرتبط كلّ الارتباط باسم علي عليه السلام دلّت على ذلك الروايات الكثيرة التي توفرت لأهل العلم، ولسنا بصدد إثبات صحة هذه الروايات بقدر ما نريد قراءتها وغيرها للحاظ مظهر مهم من مظاهر العقل المسلم في تأسيس هذا العلم الفذ وأعني بذلك العنوان الذي بدأته وهو أثرالإمامة في احتضان هذا الوليد حتى يكبر وهنا لابد أن نتابع الأمر من يوم نزول القرآن على النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلّم) ليتسنى لنا معرفة الدور الذي قام به علي عليه السلام.

مرحلة تدوين القرآن: روى الشيعة والسنة أن علياً عليه السلام كتب نسخة القرآن على أثر وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم))[22]. وقال ابن جزي في التسهيل: ((وكان القرآن في عهد الرسول متفرّقاً في الصحف وفي صدور الرجال فلما توفي رسول الله قعد علي بن أبي طالب رضي الله عنه في بيته فجمعه على ترتيب نزوله ولو وُجد مصحفه لكان فيه علم كبير ولكنه لم يوجد))[23].

1- تصحيح القراءات: (رُوي أنّ زيداً لمّا قرأ (التابوه) قال علي عليه السلام اكتبه (التابوت)فكتبه كذلك)[24]. والقرّاء السبعة إلى قراءته يرجعون، فأما حمزة والكسائي فيعولان على قراءة علي عليه السلام وابن مسعود وهما انما يرجعان إلى علي ويوافقان ابن مسعود فيما يجري مجرى الاعراب، وقال ابن مسعود ما رأيت أحداً أقرأ من علي عليه السلام للقرآن)[25].

2- إعجام القرآن وشكله: قرينة ثالثة من قرائن التصاق علي عليه السلام بالقرآن وحرصه عليه إذ يروى أن الامام علياً عليه السلام سمع قارئا يقرأ: ((إن الله بريء من المشركين ورسولِهِ))[26] بكسر اللام في (رسوله) وهو كفر فتقدّم إلى أبي الأسود

((حتى وضع للناس أصلاً ومثالاً وباباً وقياساً بعد أن فتق له حاشيته ومهّد له قواعده))[27]. ويقول القلقشندي: ((إنّ أول من نقط القرآن ووضع العربية أبو الأسود الدؤلي من تلقين أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه))[28].

في هذه المرحلة استوزر علي عليه السلام أبا الأسود وأوكل الأمر إليه ثقة منه بعلمه ودقة اختصاصه. فالوزير أبو الأسود أوكل إليه أن يختص بهذا الأمر بأمر من علي بغض النظر عن الاعتقاد بشخص علي سواء أكان إماماً معصوما مفترض الطاعة، كما هو عند الإمامية، أم هو الخليفة الرابع لرسول الله يبقى أنه في ضمن المنظومة الاسلامية. إذاً بإرشاد ولي الأمر لوزير نابغ حاذق وهذا الأخير ألف لجنة من التلاميذ يعملون في ضوء توجيهاته يعني بداية لعمل مؤسساتي مختص بنقط القرآن وشكله وخطوة أولى لمشروع علمي ضخم هدفه خدمة القرآن.

وقد عالج أبو الأسود (69هـ) بادئ ذي بدء مسألة ضبط العلامات الاعرابية في المصحف احترازا من اللحن، وابتعادا عن العجمة، ورعاية لسلامة النص، فاستعمل لذلك ما يفرق فيه بين حالات الرفع والنصب والجر بالتنوين وبدونه وابتكر باجتهاد فطري منه طريقته الخاصة الاولى باستعمال النقط للحركات بصورة مميزة عددا وموضعا ولونا كما في قوله لكاتبه: ((خذ المصحف ومداداً يخالف لون المداد، فإذا فتحت شفتي فأنقط واحدة فوق الحرف وإذا ضممتها فاجعل النقطة في أسفله فإن أتبعت هذه الحركات غنة فأنقط نقطتين. فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره))[29]. وكان هذا العالم الجليل متقنا لعمله دقيقا فيه إذ من خلال الروايات تبين أنه قد خالف بين لون المداد المدون به المصحف وبين لونه لوضع الحركات، وقد جعل هذه الحركات على شكل نقاط في مواضعها المعينة وقد من ذلك ما يلي:

أ- نقطة فوق الحرف، علامة الفتحة.

ب- نقطة تحت الحرف، علامة الكسرة.

ت- نقطة في خلال أو بجانب الحرف، علامة للضمة.

ث- نقطتين على الحرف، علامة للتنوين.

وكان هذا العمل من أبي الأسود متميزا بقيمة فنية أمكن بوساطتها التمييز بين الحالات الاعرابية بنقط مختلفة المواضع بعد ان كانت هملا وبلون يخالف الاصل المدون به المصحف زيادة في الضبط والتفريق.

وقفة عند عمل أبي الأسود توحي لنا بالدوافع والمشجعات لهذا العمل الضخم وهي لا تخرج عما يأتي:

1- إطاعة أمر مولاه علي عليه السلام فهو من شيعته، ومن خلّص أصحابه تتلمذ على يديه ونهل من علمه وهو مصداق للتلمذة الحقيقية التي أكدتها الديانات المختلفة[30].

2- لما أوكل اليه هذا العمل أصبح وزيرا لعلي في هذا الأمر ومن ثم تحتم عليه اتقانه على أحسن وجه ومن دون تقصير يذكر.

3- أبو الاسود الدؤلي شاعر شغوف باللغة وحريص عليها فخدمة القران تكون أولى وأجمل.

4- العقلية الراجحة لأبي الاسود هي التي جعلت عليا يستوزره لهكذا مهمة.

5- الخلق العالي الذي يمتلكه ابو الاسود فهو من الزهاد الذين اشاد بهم التاريخ الاسلامي على اختلاف المذاهب.

من هذه الامور نلحظ مقومات مهمة للعقل المسلم اتضحت معالمها في الاتقان، والجد، والابداع، والطاعة، والمنهجية، والدقة، والموهبة، والالهام الالهي ومن ثم لا داعي لخلط الاوراق واسناد هكذا علم لمن لا يستحقه ممن شغل بالسياسة والملك أعني بذلك نسبة الامر لزياد ابن ابيه أو عبد الملك بن مروان وذلك لضعف الروايات الواردة في ذلك من جهة وعزلة أبي الاسود عن السياسة من جهة اخرى[31]. إذ لو صحّ ماقيل بشأن علاقة أبي الأسود وزياد لكان أزمة للعقل المسلم فأمر السياسة شكل أزمة للعقل المسلم على مر العصور الاسلامية المتعاقبة[32].

لا يحق للبعض التقليل من شان ابي الاسود واستكثار امر النقط والشكل عليه ولا سيما الدكتور صبحي الصالح[33] واتفق مع الدكتور الصغير حين قال: ((وليت شعري ما المانع العقلي أو المنطقي الذي يراه صبحي الصالح حائلا عن قيام ابي الاسود بذلك وهو العالم الموسوعي في كثير من فنون الادب واللغة والتراث وهو بعد تلميذ الامام علي ولم تشغله سياسة القوم عن النهج العلمي))[34].

واللجنة العلمية أو قل: المجمع العلمي الذي تابع عمل أبي الاسود تمثل باثنين من تلامذته هما يحيى بن يعمر العدواني (90هـ)، ونصر بن عاصم الليثي(89هـ) اذ وضعا النقاط على الحروف ازواجا وافرادا وقد كان وضع النقاط على الحروف حقيقيا لا على سبيل الاستعمال المجازي[35].

واتسعت اللجنة العلمية وزاد اتباع ابي الاسود علامات اخرى في الشكل[36].

ولا تقف هذه الموسسة العلمية ان صح التعبير عند البرنامج الكتابي العملي وتتركه من دون علم نظري ومعيار ومرجعية تقومه وتحرز جانب الدقة فيه لاسيما عندما ازداد خطر اللحن واتسعت رقعة الاسلام.لقد استدعى الامام وهو الراعي لامور دولة الاسلام والرديف لكتاب الله والقران الناطق وزيره ليقوم بمهمة نظرية تحكم أطر اللغة وتحفظ فصاحتها اذ يقول أبو الاسود: ((دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) فرأيته مطرقا مفكرا فقلت فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟ قال: إني سمعت في بلدكم لحناً فأردت أن أضع كتاباً في أصول العربية فقلت ان فعلت هذا يا أمير المؤمنين أحييتنا وأبقيت فينا هذه اللغة ثم أتيته بعد أيام فألقى إلي صحيفة فيها بسم الله الرحمن الرحيم الكلام كله اسم وفعل وحرف فالاسم ما أنبأ عن مسمى والفعل ما أنبأ عن حركة... ثم قال تتبعه وزد فيه ما وقع لك...))[37].

مما تقدم تتضح مظاهر العقل المسلم من خلال القرائن الخارجية وفريق العمل الذي أنتج علما يشار له بالبنان. فإمام يوكل وزيرا ومعتمدا ووكيلا ثم الاخير يكلف تلاميذ (لجنة) لعمل جماعي يخدم القران دستور المسلم وكتابه المقدس بمنظومة علمية تعمل حثيثا حتى تأتي على آخر ما أوكل إليها والمخطط الآتي لا يخلو من فائدة في الايضاح:

الله
|
النبي
|
القرآن ـــالإمام علي
|
الوزير(العالم الموكّل)
|
اللجنة العلمية (التلاميذ) _____(علم النحو)

لا يخفى من لحاظ المخطط موقع علي عليه السلام فهو آخر الثلاثية الأولى وأول الثلاثية الثانية هو الوصي على هذا الدين والمؤمن على كتاب الله وهو عدله وما بعده وكلاؤه وتلاميذه وأحسب أن العقل المسلم اتضح هنا بأبرز معالمه ولا داعي للإطالة أكثر من هذا.

والقرائن الداخلية التي يمكن لحاظها كمظاهر للعقل المسلم في مرحلة التأسيس تتمحور في التقسيم الثلاثي، وملامح توخّي الدقة من قوله: (انحُ)، و(تتبّع)، (زدتُ عليها ماوقع لي) وقبل التفصيل فيها نود القول: أن مقولة تأسيس النحو هي النحو بحد ذاته

مكتملا باختصار ينم عن حكمة مبتكره، وهي في الوقت نفسه سابقة لعصرها رفيعة المستوى لا تحتاج الا للتفريع والتشقيق واستكمال الادلة والمصاديق ودليل ما ذهبنا اليه ما استشفه الفلاسفة من مقولة تأسيس النحو من عمق معرفي ودلالي دقيق[38]. ناهيك عن كون مقولة علي عليه السلام تمثل معجزة ذلك العصر كما صرّح ابن أبي الحديد المعتزلي[39].

ثالثاً:

مظاهر العقل المسلم في ضوء عناصر الجهاز المعرفي:

توطئة:

لقد تعاملت الأبحاث العلمية بشكل عام و النحوية بشكل خاص مع النصوص على يد علماء الاسلام فأورثت جهازاً معرفياً متكاملاً قادراً على تحقيق السمة العلمية وعلى العطاء والابداع المعرفي.

ومن المفيد أن نعرّف بعناصر الجهاز المعرفي الذي استطاع أن يكون المعرفة الاسلامية ويحقق لها الهوية المبدئية ويمدّها بالقدرة على استيعاب ما أنتجته الشعوب الأخرى بالشكل الذي لا يتعارض مع الهوية الاسلامية.

وعناصر الجهاز المعرفي هي[40]:

1- المنهج.
2- المصطلح.
3- المسلّمات.

المنهج:

((إنه ألا تقبل أي فكرة إلا إذا أيدها دليل مناسب))[41] ويجد فلاسفة العلم في وضع معايير لتقييم الأدلة وتمييز المقبول منها من المرفوض. وثمة أمران يجدر ذكرهما: أولهما: أن قبول الدليل أو رفضه باعتباره مناسبا أو غير مناسب إنما يقوم على نظرة موضوعية مبرأة من كل هوى خاص أو ميل شخصي فلا نقبل دليلا ؛لأنه يرضي زيداً أو عمراً أو يؤيد فكرة محببة إليه أو منحى ينتحيه إنما يقبله لأنه حق ؛ والحق وحده هو المقبول في رحاب العلم. ومن شروط العلم أن يبدأ ويظل موضوعياً بعيدا كل البعد عن الهوى وجموح الأغراض وتقلبات السياسة[42].

ثانيهما: إن العلمي لا يقبل دليلا يستند إلى قوة خفية أسطورية كانت أو دينية وهو بهذا لا يتنكر للدين ولكنه يرى الميتا فيزيقا حقلا غير حقله[43].

ودراسة وتحليل الاعمال التي انتجها المسلمون في مجال المعارف والوقوف على مسارهم المنهجي وتثبيتهم الاسس التي اعتمدوها في عملهم العلمي، وتصريحهم بها إن دراسة كل تلك الاعمال الفكرية تكشف لنا عن منهج علمي متقن ومتناسق قادر على التعامل مع القضايا التي تراد دراستها تعاملا علميا منظما يسير على اسس منطقية وموضوعية فقد أسس المسلمون مناهج علمية يصح معها القول أن لدى علماء الاسلام علما يسمى علم المناهج وهذا متأت من أن المسلمين أسسوا لكل علم منهجا لكل علم ينظم دراساته وأبحاثه.

ودراسات علماء الاسلام ومنهم النحويون بأبحاثهم العلمية ونقدهم المناهج الأخرى انتهوا إلى وضع المنهج العلمي القائم على أساس الاستقراء، والاحتمال، والقياس والنقد، والبرهان ووضعوا الدراسات والتفاصيل العلمية الدقيقة لتطبيق هذا المنهج والاستفادة منه فكان لهم في الفقه والاستنباط وهو منهج اصول الفقه، ولهم منهج في فهم العقيدة احتواه علم الكلام على شكل مبادئ وأسس. ولهم منهجهم في فهم وتفسير القرآن تجسد تطبيقه في علمي التفسير والتأويل ولهم منهجهم في فهم الدراسات التأريخية والسنة النبوية. فلم تكن دراساتهم عشوائية أو قائمة على الارتجال والغموض الفكري بل يجدها الباحث والمحلل المنهجي بنية علمية منظمة يتحكم المنهج في مساراتها من الأسس والمقدمات الى النتائج والمعطيات.

ويبدو للباحث أن مناهج النحويين تأثرت بمذاهبهم الدينية وظهر ذلك جلياً في مؤلفاتهم وسنقف على ثلاثة اتجاهات مذهبية لها حضورها في العقل المسلم.

1- مذهب الإمامية: ويقوم هذا المذهب على أسس أهمها:

أ- الإمامة وأن الامام له قوة قدسية يتلقى بها الالهام أودعها الله فيه وهو لا يخطئ ولا يشتبه[44] وهذه القوة القدسية تكون عنده في غاية الكمال وتحجبه عن الحاجة الى غيره وسلوك السبيل التحصيلي النظري[45].

ب- اعتماد منهج الاثبات والبرهنة.

ت- الاجتهاد في البحث العلمي[46].

وأنموذج المذهب الامامي هو الرضي الاستراباذي (ت688هـ) يمكن أن نتلمس في شرحه على كافية ابن الحاجب قرائن مذهبه هذا ويمكن تلخيصها في الآتي:

1- احتجاجه بشواهد من نهج البلاغة ووصفها بأنها من أفصح الكلام بعد كلام الله وكلام رسوله[47].

2- اجتهاده في كثير من المسائل النحوية وعدم الوقوف على مقررات الاقدمين مكتوف اليدين.

3- التمثيل النحوي الذي يشم فيه مذهبه الامامي مثل (قتيل الطف، الحسين ثالث الايمة، وامن دحا باب خيبراه، لولا علي لهلك عمر، وغيرها)[48].

4- انكاره تواتر القراءات السبع[49].

5- وصفه من قبل النحويين واصحاب التراجم بنجم الشيعة[50].

6- توسله في مقدمة شرحه بعلي بن ابي طالب بقوله(فإن جاء مرضيا فببركات الجناب المقدس الغروي) وفي مقدمة شرح الشافية يقول: (وعلى الله المعول في أن يوفقني لإتمامه بمنه وكرمه وبالتوسل بمن انا في مقدس حرمه عليه من الله ازكى السلام وعلى اولاده الغر الكرام)[51].

ثانيا المعتزلة ويقوم على الاتي:

1- يعد المعتزلة ان العلم مثله مثل الارادة عرض يعرض على القلب فهو مثله مثل افعال القلوب، فالإرادة لا تحل باليد ولا بالدماغ.[52]

2-العقل قادر على معرفة الله بنفسه ودون الحاجة الى شرع[53].

3-يمكن الاستدلال على الغائب بالشاهد.

والذي يمثل هذا المنهج هو الزمخشري النحوي ولاسيما في كشافه اذ يتضح أثر الاعتزال في آرائه النحوية[54].

ثالثا: الاشعرية: ويقوم على الامور الآتية:

1- ان جميع الموجودات التي في العالم جائز في العقل ان تكون على ماهي عليه او العكس.

2- لا سبيل الى اتخاذ موجودات العالم دليلا على وجود صانع لها[55].

انموذج الاشعرية عبد القاهر الجرجاني في كتابه شرح جمل الزجاجي على اغلب الآراء[56].

العنصر الثاني: المصطلح:

ادرك علماء الاسلام عامة والنحويون خاصة اهمية المصطلح العلمي وقيمته في اختزان المعلومات والتعبير عنها وحفظ الاصالة الفكرية وقد برعوا الى حد كبير وامتلكوا ثروة فكرية مختزنة والمصطلح هو اللفظ الذي يصطلح عليه بين اهل عرف او اختصاص ليدل على معنى معين عندهم يتبادر الى الذهن عند اطلاق ذلك اللفظ كمصطلح القياس والاستقراء والفاعل والمفعول... الخ[57].

العنصر الثالث: المسلمات العلمية:

ما بين ايدينا من علوم ومعارف لا حصر لها وما بين ايدينا من منظومة فكرية عملاقة هي من ابداع العقل الانساني وجهود الانسان العلمية وهذا المركب العلمي والمعرفي المعقد والواسع ينتمي الى اسس ومنطلقات ومسلمات أساسية يجب أن تمتلك الصفة القطعية ليبنى عليها بناء علميا قطعيا ولكل علم من العلوم والمعارف مسلماته الأولى التي يعتمد عليها بناؤه الفكري فهي بالنسبة له كالأساس بالنسبة الى البناء. كما لهذه المسلمات العلمية الخاصة مسلمات كلية عامة تقوم عليها[58].

وتحدث المفكر الشهيد السيد محمد باقر الصدر عن قيام البناء الفكري على أسس علمية مسلم بها فقال: ((إن مرد المعارف التصديقية جميعها الى معارف أساسية ضرورية لا يمكن اثبات ضرورتها بدليل البرهنة على صحتها وانما يشعر العقل بضرورة التسليم والاعتقاد بصحتها كمبدأ عدم التناقض، ومبدأ العلِّية، والمبادئ الرياضية الاولية))[59].

ففي كل علم ينطلق العلماء من مسلمات أساسية. والنحويون ينطلقون من النصوص العربية المروية عن الفصحاء العرب ومنها يبدأ العقل عمله العلمي ويمارس دوره في القياس والاستقراء والتمثيل وبيان القواعد وطرد الاحكام.

خلاصة القول: ان المنهج والمصطلح والمسلمات من المظاهر الواضحة للعقل المسلم في الدرس النحوي العملي منه والنظري الفلسفي.

الخاتمة والنتائج:

انتهت الدراسة إلى نتائج أهمها:

1- يطلق العقل المسلم على العقل الطبيعي (القوة المدركة) الذي يمارس نشاطه العلمي وفق الأس والمسلمات الإسلامية أي تلك الآلة المدركة التي تنظم حركتها وفق خريطة وتعليمات إسلامية.
2- اتضح مظهر العقل المسلم في تأسيس النحو كونه أمراً من صميم العمل القرآني وما عهد الى النبي والامام والاصحاب والتابعين ممن كان في ضمن دائرة التلمذة النبوية العلوية التي شغلت بتدوين القرآن ثم ضبطه وتأسيس علم النحو.
3- يشتمل الثالوث المعرفي الذي دار فيه العقل المسلم على المنهج والمصطلح والمسلمات وبه أحكمت فلسفة النحو على أحسن وجه.

هوامش البحث:

1- لسان العرب: مادة ع ق ل.
2- بنية العقل العربي: 208.
3- ينظر: المصدر نفسه: 209.
4- البقرة: 75.
5- الحج: 46.
6- كشاف اصطلاحات الفنون: التهانوي: 304/3.
7- المغني: عبد الجبار الجرجاني: 375/11-386.
8- المصدر نفسه: 375/11-386.
9- المعتمد في أصول الدين: الحنبلي: 101-102.
10- العواصم من القواصم: ابن العربي: 215-220.
11- ينظر: بنية العقل العربي: 213.
12- المفردات: الراعب الاصفهاني: مادة ع ق ل.

13- المصدر نفسه: مادة ع ل م.
14- دائرة محمد فريد وجدي: 134/3.
15- المصدر نفسه: 134/3.
16- المصدر نفسه: 134/3.
17- ينظر: العقل العربي: 45.
18- حول منهج التعامل مع التراث: 22.
19- رسائل الشريف المرتضى: 127/1.
20- أصول الفقه: المظفر: 125/3.
21- مقدمة ابن خلدون: 382.
22- مصنّف ابن أبي شيبة: 197/7.
23- التسهيل: 6/1.
24- تدوين القرآن: الكوراني: 345.
25- المصدر نفسه: 345.
26- التوبة: 3.
27- البصائر والذخائر: 261/1، وتاريخ القران: 126.
28- صبح الاعشى: 151/3.
29- أخبار النحويين: السيرافي: 16، والفهرست: 40.
30- التلمذة: 13.
31- تأريخ القرآن: 127.
32- أزمة العقل المسلم: 67.
33- مباحث في علوم القرآن: 94.
34- تأريخ القرآن: 231.
35- المصدر نفسه: 127.
36- تأريخ القرآن: الزنجاني: 88.
37- معجم الأدباء: الحموي: 48/14-50.
38- الاشتقاق: البهبهاني: 58.
39- ينظر: المصطلح عند سيبويه: القوزي: 45.
40- ينظر: حول منهج التعامل مع التراث: 64.
41- مقدمة في تأريخ الفكر: 21.
42- ينظر: المصدر نفسه: 21.
43- ينظر: المصدر نفسه: 21.
44- ينظر: عقائد الامامية: 67.
45- ينظر: صراط الحق: 350/3.

46- ينظر: النص والاجتهاد: 56.
47- ينظر: شرح الرضي: 4/43-44 (فهرس مفصل للشواهد).
48- ينظر: المصدر نفسه: 4/43-50(الفهرس).
49- ينظر: المصدر نفسه: 4/44-50.
50- ينظر: بغية الوعاة: السيوطي: 6/321.
51- يظر: المصدر السابق)المقدمة).
52- ينظر: بنية العقل العربي: 213.
53- ينظر: المصدر نفسه: 213.
54- ينظر: أثر الاعتزال في آراء الزمخشري اللغوية: 23-190.
55- ينظر: المصدر السابق: 541.
56- ينظر: البحث الدلالي عند الجرجاني: 34.
57- ينظر: حول منهج التعامل مع التراث: 67.
58- ينظر: المصدر نفسه: 68.
59- ينظر: فلسفتنا: محمد باقر الصدر: 141.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- أخبار النحويين البصريين: أبو سعيد السيرافي(ت 368هـ)، تحـ: طه الزيني، وآخرون، ط1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، (1374هـ -1955م).
- أثر الاعتزال في توجيهات الزمخشري اللغوية والنحوية في الكشاف: مهند حسن الجبالي، 2001م.
- الاشتقاق في الرواية المنسوبة لعلي ابن أبي طالب: البهبهاني، طهران، د، ت.
- أصول الفقه: المظفر، ط 1، دار التعارف، بيروت، 1983م.
- البحث الدلالي عند عبد القاهر الجرجاني: تراث الزيادي، دار الصادق، 2006م.
- بغية الوعاة: جلال الدين السيوطي(ت911هـ)، بيروت، د، ت.
- بنية العقل العربي: محمد عابد الجابري، بيروت، 1986م.
- تأريخ القرآن: محمد طاهر الكردي، مطبعة الفتح، جدة، د.ت.
- تدوين القرآن: علي الكوراني العاملي، قم، د.ت.
- التلمذة: البابا اشنودة الثالث، بيروت، د.ت.
- حول منهج التعامل مع التراث: مجموعة من المؤلفين، مؤسسة البلاغ، 2006م.
- دائرة محمد فريد وجدي، بيروت، 2005م.
- رسائل الشريف المرتضى: الشريف المرتضى، بيروت، 1982م.
- شرح الرضي على كافية ابن الحاجب: محمد بن الحسن الرضي(ت688هـ)، تحـ: يوسف حسن عمر، طهران، د.ت.
- صراط الحق في المعارف الاسلامية: محمد آصف محسني، دار الوارث للطباعة والنشر، د.م، د.ت.

- عقائد الامامية: المظفر، تحـ: محمد الطريحي، بيروت، د.ت.
- العواصم من القواصم: محمد بن ابراهيم، تحـ: شعيب الأرناؤوط، اليمن، د.ت.
- فلسفتنا: محمد باقر الصدر، بيروت، 1984م.
- الفهرست: ابن النديم، بيروت، د.ت.
- كشاف اصطلاحات الفنون: التهانوي، طهران، د.ت.
- لسان العرب: ابن منظور (711هـ)، بيروت، د.ت.
- المصطلح النحوي عند سيبويه، القوزي، بيروت، 1999م.
- المعتمد: ابو حامد البصري، القاهرة، 1979م.
- معجم الأدباء: ياقوت الحموي، بيروت، 1974م.
- المغني في أبواب التوحيد: القاضي عبد الجبار، القاهرة، 1960م.
- المفردات في عريب القرآن: الراغب الأصفهاني، تحـ: ابراهيم شمس الدين، بيروت، 1430هـ – 2009م.
- مقدمة ابن خلدون: ابن خلدون، تحـ: محمد محمد تامر، القاهرة، 2005م.
- مقدمة في تاريخ الفكر العلمي في الاسلام: احمد سعيدان، الكويت، 1988م.
- النص والاجتهاد: عبد الحسين شرف الدين، بيروت، د.ت.